

حب الله في المجتمع الإسلامي



تقرر العقيدة الإسلامية بأن الله ليس كمثله شيء (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى/ 11) ومن البديهي أن لا يستطيع عقل الإنسان القاصر أن يعرف من ليس كمثله شيء. هذه المعرفة لا تبدو مستحيلة، ويتضح استحالتها في حق الكائنات جميعاً. يقول الإمام الجنيدي: "لا يعرف الله تعالى إلا الله تعالى" أي أن المعرفة الحقيقية التامة لا تكون إلا الله تعالى. ويتفق في هذا الرأي الإمام الغزالي، وكذلك تنتهي معرفة العارفين بالله إلى عجزهم عن المعرفة. وإذا كانت المعرفة الحقيقية لا مستحيلة على البشر فإن الله لا يبقى أمامنا إلا المعرفة النسبية وهي معرفة أسمائه سبحانه وتعالى ومعرفة عجائب صنعه في الكون. لقد خلق الله الخلق ليعبدوه، والعبادة هي قمة المحبة والمحبة هي قمة المعرفة. والحب في الإسلام هو القانون الحاكم في الوجود، وعطاء الله هو سبب ميلاد الكون والإنسان، وقد خلقنا الله لنتفضل علينا بحبه، وليسمح لنا بحبه. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة/ 54) وهنا كما هو واضح يتوعد الله من يرتد عن دينه وهذا هو أفدح الذنوب، يتوعد بأرقى ما في الوجود من مشاعر الحب، لا يهدد بالنار والعذاب، وإنما يهدده بأن يستبدل به قوماً يحبهم ويحبونه.. إن القيمة الوحيدة التي تقف على النقيض من الشرك بالله وعدم الإيمان به هي قيمة حب الله.

إن قانون الحب الأعلى هو العطاء. (وإذا كان الحب عطاء فإن الله وحده هو المعطي.. فهو يعطي عباده كل شيء، أمّا العبد فإن الله لا يستطيع أن يعطي شيئاً، إذا أنفق الإنسان من ماله في سبيل الله فإن الله لا يعطي إلا شيئاً لأن المال مال الله، وإذا استشهد في سبيل الله فإن الجسد والروح ملك خالص، ولا يمكن أن يقال لمن يرد الأمانة إلى الله المالك الأصلي أنه يعطيه شيئاً) إذن فقانون العطاء لا يسري إلا على الله فقط، وبالتالي فإن الله وحده هو المحب، ومن الوهم أن يتصور الإنسان غير المؤمن أنه يحب الله، فالحقيقة أن الله هو الذي يحب الإنسان ويقبل منه الشكر بدلاً من العطاء، ويجعل الشكر سبباً في زيادة العطاء (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذاب لي).

لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/ 7). إِنَّهُ لَمِنْ دَوَاعِي الرَّحْمَةِ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَخْفِيَ الْإِيمَانُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حُكْمَتُهُ عَنِ الْبَشَرِ، لَقَدْ أَعْطَاهُمْ مِنَ الْحِكْمَةِ قَدْرًا يُمْكِنُهُمْ مِنَ الْخَلَافَةِ فِي الْأَرْضِ، وَأَعْطَى الْأَنْبِيَاءَ قَدْرًا يُمْكِنُهُمْ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، أَمَّا سِرُّ حُكْمَتِهِ الْعَظْمَى فَقَدْ أَبْقَاهُ سِرًّا لِدَاتِهِ، وَمِنْ الْأَفْضَلِ أَنْ نَسْجُدَ بِدَلَالٍ مِنَ السُّؤَالِ عَنْ ذَاتِهِ. وَرَغْمَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكْفِي عَنْ الْأَسْئَلَةِ سِوَاءٍ عَنْ حِكْمَةِ الْإِيمَانِ أَوْ عَنْ ذَاتِ الْإِيمَانِ. إِنَّ الْأَصْلَ فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُوَ الْمَعْرِفَةُ وَالسُّؤَالُ حَقٌّ لِلْإِنْسَانِ، حَقٌّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَعَنْ أَيِّ شَيْءٍ وَأَنْ يَفَكِّرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أَيُّ مَنَاطِقٍ مُحَرَّمَةٍ إِلَّا مَنَاطِقٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ التَّفَكُّيرُ فِي ذَاتِ الْإِيمَانِ، وَذَلِكَ لِسَبَبٍ بَسِيطٍ وَهُوَ أَنَّ ذَاتَ الْإِيمَانِ تَعَالَى تَتَجَاوَزُ طَاقَةَ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ وَقُدْرَةَ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ، فَكَيْفَ يَدْرِكُ الْعَقْلُ الْقَاصِرَ حَقِيقَةَ إِلَهِ الْأَزَلِيِّ الْكَامِلِ. أَنَّ الدَّلِيلَ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى وَجُودِ الْإِيمَانِ هُوَ الْإِيمَانُ ذَاتَهُ. يَقُولُ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ بَعْدَ تَجَرُّبَةِ الشُّكِّ الَّتِي خَاضَهَا كَمَنْهَجٍ لِمَعْرِفَةِ الْإِيمَانِ، شَكَّكَتْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى شَيْءٍ وَإِذْ بِإِيمَانٍ قَذَفَ الْإِيمَانُ بِهِ فِي صَدْرِي فَأَمَنْتُ وَاسْتَرَحْتُ مِنَ الشُّكِّ. الطَّرِيقُ إِذَنْ لِمَعْرِفَةِ الْإِيمَانِ هُوَ الْإِيمَانُ.. هُوَ الْإِيمَانُ فَالْعَقْلُ مَخْلُوقٌ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ. وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا كَمَا يَدْعِي الْغَرِيبُونَ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْإِيمَانِ وَصَبْرٍ وَتَأَمُّلٍ فَقَطْ، فَالْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ هِيَ الْمَسْئُولُ الْأَوَّلُ عَنْ قِيَامِ الْمَنْهَجِ التَّجْرِبِيِّ فِي دُنْيَا الْمَادَّةِ، وَهِيَ الْمَسْئُولُ الْأَوَّلُ عَلَى إِطْلَاقِ عَنَانِ الْفِكْرِ وَحُثِّهِ عَلَى النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّيرِ فِي الْكُونِ. أَمَّا ذَاتُ الْإِيمَانِ فَهِيَ لَيْسَتْ مَادَّةً تَخْضَعُ لِتَأَمُّلِ الْعَقْلِ وَأَسْئَلَتِهِ. فَالْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِاحْتِرَامِهَا لِلْعَقْلِ وَمَخَاطَبَتِهَا الدَّائِمَةُ لِلْعَقْلِ، قَدْ بَيَّنَّتْ لِلْعَقْلِ أَيْضًا حُدُودَهُ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عِنْدَهَا. فَفِي دُنْيَا الْغَيْبِ لَا يَلْجَأُ الْمُسْلِمُ إِلَى الْعَقْلِ وَإِنَّمَا عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِالْغَيْبِ وَأَنْ يَصَدِّقَ مَا أَتَى بِهِ الرَّسُولُ.

إِنَّ السُّؤَالَ عَنْ ذَاتِ الْإِيمَانِ هُوَ سُّؤَالٌ خَاطِئٌ مِنْذُ الْبَدَايَةِ لِأَنَّهُ يَفْتَرِضُ خُضُوعَ الْإِيمَانِ لِقَوَانِينِ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهِيَ حَيَاةٌ تَعْرِفُ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالتَّجَرُّبَةِ وَيَنْطَبِقُ عَلَيْهَا قَانُونُ الْأَشْيَاءِ، وَيَتَصَوَّرُ أَصْحَابُ هَذَا السُّؤَالِ أَنَّ قَانُونَ الْأَشْيَاءِ يُمْكِنُ أَنْ يَنْطَبِقَ عَلَى الْإِيمَانِ.. وَلَوْ تَأَمَّلْنَا قَلِيلًا لَوَجَدْنَا أَنَّ لِكُلِّ كَائِنٍ قَانُونَهُ الْخَاصَّ الَّذِي لَا يَنْطَبِقُ عَلَى الْكَائِنَاتِ الْأُخْرَى، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْقَانُونَ الْبَشَرِيَّ لَا يَنْطَبِقُ عَلَى ذَاتِ الْإِيمَانِ. إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يُولَدُ وَيَنْمُو وَيَتَزَوَّجُ وَيَلِدُ فَإِنَّ الْإِيمَانُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الإخلاص/ 3-4) "لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا" إِذَنْ فَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْإِيمَانِ إِلَّا الْإِيمَانُ بِالْإِيمَانِ.

لَا تَنْكَرُ الْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ أَنَّ يَسْتَدِلُّ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَبِالْكَوْنِ عَلَى وَجُودِ الْإِيمَانِ وَإِنَّمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَهَذَا يُؤَكِّدُ احْتِرَامَ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ لِلْعَقْلِ. وَتَوْجِدُ مَسْتَوِيَّاتٍ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى وَجُودِ الْإِيمَانِ، فَالنَّظَرَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ تَبْدَأُ مِنَ الْكَوْنِ وَالْإِنْسَانِ، أَيُّ تَسْتَدِلُّ مِنَ وَجُودِ الْكَوْنِ عَلَى وَجُودِ الْإِيمَانِ، أَمَّا النَّظَرَةُ الْأَعْلَى وَالْأَرْفَى فَهِيَ تَجَاوِزُ الْوُجُودَ إِلَى الْمَوْجِدِ وَتَجَاوِزُ الْكَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ، أَيُّ أَنََّّهُ تَسْتَدِلُّ بِوُجُودِ الْإِيمَانِ عَلَى وَجُودِ الْكَوْنِ، وَهَكَذَا يَفْعَلُ بَعْضُ الْمَفْكَرِينَ الْإِسْلَامِيِّينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْفِكْرَةَ التَّقْلِيدِيَّةَ فِي الْاسْتِدْلَالِ عَلَى وَجُودِ الْإِيمَانِ خَطَأٌ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْكَوْنَ كَانَ ظُلْمَةً أَنْارَ بِظُهُورِ الْحَقِّ فِيهِ، فَمَنْ رَأَى الْكَوْنَ وَلَمْ يَشْهَدْ الْإِيمَانُ فِيهِ أَوْ عِنْدَهُ فَقَدْ حُجِبَتْ عَنْهُ شُمُوسُ الْمَعَارِفِ، فَكَيْفَ يَتَصَوَّرُ الْعَقْلُ أَنْ يَحْجِبَهُ شَيْءٌ وَهُوَ أَسَاسُ كُلِّ شَيْءٍ، كَيْفَ يَحْجِبُهُ شَيْءٌ وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ.. إلهي كَيْفَ يَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وَجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيْ كَيْفَ لَغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمَظْهَرُ لَكَ؟ مَتَى غَبَتْ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتَى بَعْدَتْ حَتَّى تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَيْكَ؟ شَتَانُ بَيْنَ مَنْ يَرَاهُ وَيَسْتَدِلُّ بِهِ وَمَنْ لَا يَرَاهُ فَيَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ". إِنَّ الْكَوْنَ نَسْبِيٌّ لَهُ نَهَايَةً أَمَّا الْإِيمَانُ فَهُوَ أَزَلِيٌّ مُطْلَقٌ، وَنَحْنُ نَدْرِكُ الْكَوْنَ بِحَوَاسِنَا، وَقَدْ تَخَدَعْنَا الْحَوَاسِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهَا لَا تَوْصِلُنَا إِلَى الْحَقِيقَةِ. قِمَّةُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِذَنْ تَكْمُنُ فِي مَعْرِفَةِ الْإِيمَانِ بِالْإِيمَانِ (أَفِي الْإِيمَانِ شَكٌّ وَطَاطَرٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) (إبراهيم/ 10) (شَهَدَ الْإِيمَانُ أَنَّ زَيْنَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَأَيْكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَانِنًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (آل عمران/ 18).

الْقَانُونُ الْأَسَاسِيُّ فِي الْإِسْلَامِ هُوَ قَانُونُ التَّوْحِيدِ (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْإِيمَانَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (آل عمران/ 31).

وَإِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ يَعْنِي مَحَبَّةَ الْإِيمَانِ، يَعْنِي مَحَبَّةَ الْعَدْلِ وَكَرَاهِيَةَ الظُّلْمِ وَالْإِيمَانُ هُوَ الْعَدْلُ وَالْعَادِلُ. بِالتَّوْحِيدِ يُحِبُّ الْإِنْسَانُ فِي الْإِيمَانِ وَيَكْرَهُ فِي الْإِيمَانِ، إِنَّ التَّوْحِيدَ حَقِيقَةٌ، وَلَكِنَّهَا يَجِبُ أَنْ تَجِدَ مَجَالَ التَّطْبِيقِ فِي الْحَيَاةِ، فَالْمَعْرِفَةُ النَّظَرِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ بِحَقَائِقِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ تَفْقِدُ الْحَقَائِقَ مَعْنَاهَا، وَلَا تَحَقِّقُ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي خِلَافَةِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ. لَيْسَ التَّوْحِيدُ فِكْرَةً عَقْلِيَّةً مُجَرَّدَةً، وَإِنَّمَا هُوَ قَانُونٌ يَجِبُ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُهُ فِي الْحَيَاةِ، وَإِهْدَارُ هَذَا الْقَانُونِ هُوَ الْمَسْئُولُ عَمَّا يَصِيبُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَجْتَمَعَ الْإِسْلَامِي مِنْ مَآسٍ فِي حَيَاتِهِمْ، فَحِينَ اقْتَصَرَ التَّوْحِيدُ عَلَى الْقَوْلِ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَعَلَى الشَّهَادَةِ بِالْأَفْوَاهِ بِغَيْرِ سُلُوكٍ فَعَلِيٍّ، صَارَ سَهْلًا عَلَى

الناس أن يكرهوا العدل ويحبّون الظلم، وأن يسكتوا على الظالم ولا يناصرون المظلوم صاحب الحقّ، أصبح من السهل عليهم أن يلجئوا إلى التواكل والكسل وعدم السير والسعي في الأرض، وبذلك انكسر أهم قانون من قوانين الحياة والخلافة في الأرض، قانون اختيار الأفضل سواء في أسلوب العمل والإنتاج أو في أسلوب الإدارة أو في شكل الحياة الإنسانية الاجتماعية وكلّ العلاقات الإنسانية.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّ) (البقرة/ 165) أي أن حبّ الله من صفات المؤمنين وغاية من غايات وجودهم، وما جزاء الحبّ إلا الحبّ "وما يزال عبيد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّته فإذا أحبّته كنت سمعه الذي يسمع به، وكنت نظره الذي يبصر به، وكنت يده التي يبطش بها" أي أن طاعة العبد لله وحده تجعله قريباً عند الله مخلصاً له، يقول الله تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (الأنفال/ 17)، العقيدة الإسلامية إذن تقوم على جانبي العقل والحبّ وهو قمة العبادة، والعبادة قمة المعرفة فلا حبّ بلا معرفة، والإنسان الذي لا يعرف لا يستطيع أن يحبّ، إنما يقدر على الحبّ من يقدر على التفكير والفهم والملاحظة والرؤية والإحساس والعطاء، وكلّما ازدادت معرفة الإنسان كلّما زادت قدرته على الحبّ. إن أهمّ قوانين الحبّ هو العطاء، والعطاء في الحبّ، يعطي الإنسان إحساساً بالسعادة وكأنّه يأخذ، العطاء يحتاج إلى رقي الإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يخرج من أنانيته إلا إذا ارتقى علمه ونضجت شخصيته ووجدانه.

ولا توجد عقيدة تربّي أبنائها على الحبّ مثل عقيدة الإسلام. قد لا يتحدّث الإسلام كثيراً عن الحبّ، ولا يستخدم هذه الكلمة كثيراً، لأنّه يعرف حقيقة الحبّ ويمارسه في حياته اليومية. وإذا كان الحبّ هو الحل الوحيد لخروج الإنسان من عزلته والخلّص من غربته، أي الخروج من سجن الذات والأنانية إلى الكون الرحيب، فإنّ الحبّ جزء من أصول الإسلام وقواعده، لأنّ الإسلام يصل المسلم بالله أولاً وأخيراً. فالمسلم المؤمن لا يكون وحيداً ولا غريباً، لأنّه يعرف أنّ الله معه. والمسلمون يتصلون بالله مباشرة وبلا واسطة فالله معهم في كلّ وقت وفي كلّ مكان، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) (الحديد/ 4) هذا الاتصال هو أوّل المعرفة النظرية بالعقيدة، فشهادة الإنسان بوحْدانية الله سبحانه وتعالى تعني خروجه من سجن العزلة والغربة إلى الاتصال بالكون وبخالق الكون. وإذا شهد الإنسان أنّ له ربّاً، وإذا أيقن أنّّه ليس وحده في هذا الكون الفسيح، تحرر من الغربة والخوف، وتحررت طاقته ومواهبه، وبالتالي يصبح الإنسان حراً.

شهادة الإنسان بوحْدانية الله، هي بداية الحبّ النظري والمعرفة النظرية، والصلاة هي التطبيق العملي لهذه المعرفة وهذا الحبّ لأنّها التقاء بالله والاتصال به، والزكاة عطاء وهي أحد قوانين الحبّ، والصوم امتثال لأوامر الله حبّاً فيه، والحج إحياء لأحد شعائر حبّ الله، تذكّراً لحبّ إبراهيم الله وتقديم ولده الوحيد قرباناً لله دليلاً على حبّه.. وهكذا يجد المتأمّل للعقيدة الإسلامية إنّها عقيدة تقوم أساساً على الحبّ.. أرقى أنواع الحبّ.. حبّ الله... الجهاد في الإسلام حبّ لله، لأنّ الأرض هي أرض الله، والإنسان هو خليفة الله في الأرض وهو المسؤول عن الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الحقّ ورفعاً للظلم والشر.

إنّ الإسلام لا يعرف غلواً في شيء على حساب شيء آخر، فهو يهئ للإنسان توازناً يمكنه من القدرة على العمل، ولذلك فلا بدّ من التعامل بحذر مع ما ذهب إليه المتصوّفون بل ولا بدّ من توجيه النقد الشديد إلى أولئك المتصوّفين الذين لجئوا إلى الزهد وإلى الصوامع وبعّدوا عن المجتمع، لأنّهم إذا كانوا قد وجدوا هدوءاً وراحة النفس - وهو أمر مشكوك فيه - فإنّهم لم يقدّموا أي شيء لإصلاح المجتمع. يعرف الإسلام حبّ الله ولكنّه لا يعرف الرهبنة "لا رهبانية في الإسلام" يحترم الإسلام العقل ولكنّه لا يجعل له السيادة على الروح، يقرر الإسلام حقائق الوجدان ولكنّه لا يسمح لها بشل نشاط العقل، يعترف الإسلام بحاجات الإنسان الدنيوية ولكنّه يطالبنا ألا ننسى الآخرة وأن نجعل الدنيا طريقاً إليها.

لقد كانت الشخصية الإسلامية في أعلى درجات نضجها وكمالها في عهد النبيّ (ص) وكانت العقيدة الإسلامية في أوج تناسقها مع شخصية المسلم، وبتطوّر المجتمع الإسلامي بدأ التوازن يختل، فقد ظهر المتكلّمون ورأوا أنّ الحياة عقلاً فلسفياً جافاً يتيه إعجاباً بنفسه - مثلما يفعل المجتمع الغربي في الوقت الحاضر - ورأى المتصوّفة أنّ الحياة ما هي إلا وهج من الحبّ الذي يخلو من العقل، وكلاهما على باطل فلا يمكن أن تغلب العلمانية على العقيدة الإسلامية الصحيحة ولا يمكن أن يكون الإسلام مجرد شطحات روحية وخيالية لدى نفر عزّلوا أنفسهم عن المجتمع وعاشوا لأنفسهم فقط. وهنا يحضرنا ما قاله الرسول (ص) لأحد الأشخاص الذي كان يجلس دائماً بالمسجد ولا يعمل فلما سأله النبيّ (ص) عن أمره قال:

إنما اتفرغ للعبادة، فسأله الرسول (ص): "ومَن يعولك أو ينفق عليك؟ قال الرجل: أخي يعمل وينفق عليّ! فقال له الرسول (ص): "إنَّ أخاك أعبد منك".

إنَّ ما يعتقدُه الغرب عن الإسلام وعن التجربة الروحية فقط والمتمثلة في خبرة الصوفية إنَّ هو إنَّ لا وهم خاطئ، فما غلو الصوفية وشطحاتهم إنَّ لا تعبير فني أو أدبي عن مشاعر أديب أو فنان، ولا يمكن أن يحتسب التعبير الفني بأي شكل من أشكاله أو صورته على الإسلام، لأنَّها أساليب تعبير فني تعتمد على الخيال والعاطفة، ولا بأس على مَن يحب ويذوب حبًّا أن يعبِّر عن حبِّه في أي صورة فنية، ما دام بعيداً عن المساس بأصول العقيدة، مع الاعتراف بأنَّ هذا النوع من الإيمان أنما هو إيمان سلمي ومحسوب على تقدُّم المجتمع الذي يعيشون فيه اسماً وهم منفصلون عنه فعلاً، فانعزال المتصوف في صومعته لا يصلح إنَّ لا نفسه – أن صح هذا القول – ولكنَّه لا يصلح المجتمع وما أوجنا إلى صلاح النفس وإصلاح المجتمع.

وهكذا نجد أنَّ حبَّ الله في المجتمع الغربي ما هو إنَّ لا خبرة فكرية في العصر الحاضر، أمَّا حبَّ الله في المجتمعات الشرقية والمجتمع الإسلامي فهي خبرة عقلية وجدانية تشمل جميع نواحي الحياة، أمَّا خبرة المتصوفين والمترهبين فيه خبرة روحية خالصة، وهذا ما يرفضه الدِّين والعقل.

أنَّ حبَّ الله من هذا المنطلق الفكري لا ينفصل عن حبِّ الوالدين. فعندما لا يستطيع إنسان ما أن يتحرر من حبِّ الأم والارتباط بها، وعندما لا يستطيع الاعتماد على نفسه، وعندما لا يستطيع الإنسان أن يتحرر من الأب الذي يثيب ويعاقب، أو يتحرر من أية سلطة أخرى، فإنَّه لن يستطيع أن يحبَّ الله حبًّا ناصحاً، ذلك أنَّ إيمانه وعقيدته سيكون على أساس مرحلة سابقة في حياة الإنسان حيث كان إله الإنسان فيما مضى أي في طفولته هو الأم التي تحميه والأب الذي يعاقبه أو ينعم عليه.

إنَّنا في العصر الحاضر نجد أمامنا هذه المراحل جميعاً من طفولة البشرية وحتى نضجها الحالي. أنَّ كلمة الله تعني أصل الوجود كما أنَّها تعني الأزلية. إنَّ كلَّ إنسان – كما قال فرويد – يحمل في عقله الباطن (اللاشعور) نموذجاً لكلِّ المراحل التي مرت بها البشرية منذ بداية الخلق.. والسؤال هو: إلى أي مدى يستطيع فرد ما أن يصل في نموه؟ إنَّ ما يمكن قوله هنا هو أنَّ حبَّ فرد ما يرتبط بالدرجة التي وصل إليها هذا الفرد في نموه ونضجه وفي نمو حبِّه لوالديه، وحبِّه لكلِّ البشر. إنَّ حبِّه وحبِّه للناس يكون في الغالب حبًّا لا شعورياً، إنَّه حبٌّ مستور، وقد ألفت له الأسباب العقلية من خلال التطوُّر الفكري العقلي والبحث الدائم عن مفهوم الحبِّ. إنَّ حبَّ الناس يتم من خلال الفكر والاختيار، أمَّا حبَّ الأسرة فإنَّه حبٌّ يتم مباشرة من خلال صورة المجتمع ومن خلال تكوين هذا المجتمع. عندما يكون البناء الاجتماعي للمجتمع قائم على أساس وجود السلطة المتحكمة، سلطة التسويق والدعاية التجارية، أو سلطة الإعلام، فإنَّ حبَّ الله وحبَّ الناس لن يكون حبًّا ناصحاً بمفهوم الأديان السماوية.

المصدر: كتاب الحبِّ بين الفلسفة والعلم